

توفيق فياض



عن الارض والأدب

بيديه اللتين كانتا تنزان ماء لعمد التعمود .. كان يتملكه احساس بالذنب والالتصاق بالارض اكثر .. كان يشعر انه لم يعط أرضه ما تستحقه من حب .
في تلك الفترة كنت معه دائما في الحقل أساعده وأحسرس الزرع .

بعد أن احللت الهاجناه المقيبه هاجرنا ثانية مع اهل القرية لنقضي قرابة العام في جبال نابلس بين اشجار الزيتون .. هذا العام علمني اكثر معنى ان يكون للانسان ارض .. كانت والدي تصنع لنا الكعك الذي نعمله انا واخوتي وننتقل بين القرى المجاورة لبيعه ، في تلك الاثناء كنا نعيش على ما تقدمه الطبيعة من نباتات برية كالزعر والسناري والمرير والقريص والعكوب والقعق .. حياتنا خلال عام ظلت ترحالا دائما بين الجبال والوديان والسهول والقرى نبيع الكعك ونجمع نباتات الطبيعة .. اضافة الى ذلك كنا نسرق من المقاتي المجاورة البندورة والفقوس والخيار والكوسى .. كنا اطفالا ونجد صعوبة في فهم قوانين الملكية ، كنت اعتقد ان الارض ملك للجميع ، غير ان أصحاب المقاتي الذين كانوا يطاردوننا ويرجموننا بالحجارة (كنا ايضا نرد عليهم) علمونا مبكرا هذه القوانين كما علمونا رفضها في نفس اللحظة .

خلال تجوالي لبيع الكعك تعلقت بالرعيان والاغنام وشبابه الراعي، حتى انني في احد الايام اشترت شياطة بكل حصيلة البيع ذلك اليوم، وأخبرت أهلي ان الكعك قد وقع في الطين .. وأصبحت بعد ذلك رفيقا للرعيان ليعلموني العزف على الشياطة مقابل بعض الكعك .

حين بدأ الجيش العراقي هجومه لتحرير قرى المثلث العربي سارت الاهالي خلف الجيش ، وكنت اركض امام الاهالي ممتلئا بشيوة طافية .. ما نحن نعود الى بيتنا ومقاتنا في المقيبه .. التي يحرقها الجيش العراقي ثم لا يلبث ان يتوقف على ابواب العفولة بنساء على الاوامر العليا ، ينتحر القائد العراقي احتجاجا ، وتبدأ اسئلة من نوع جديد تطرق راسي الصغير ..

في «ماهة رودس يدخل المثلث العربي بما فيه قريننا داخل حدود التقسيم، ويبدأ الاهالي مرة ثانية بالهرب خوفا من الانتقام الصهيوني ومن هناك الامراض كما شاع آنذاك .. لكن والدي وعدنا من الرجال كانوا يركضون خلف الناس لاقناعهم بعدم ترك الارض . الجيش العراقي كان يقول لنا : موتوا بارضكم ولا تفادروها . البلاد بيعت .. وفعلا بقي عدد كبير من أهل مقيبه في ارضهم ولم يرحلوا .

« اكتشاف الواضح وبسيط ، تلك هي المسألة المقعدة » .. كان ذلك مبعث حيرتي وأنا أدير بذهني ملامح الحوار مع توفيق فياض الكاتب الفلسطيني الذي خرج حديثا من سجون الاحتلال الصهيوني . فلاح حقيقي يروي ببساطة رائعة حكايات شعبه وصموده ، هذا باختصار شديد توفيق فياض ..

وعالم توفيق فياض هو الارض بترابها وأشجارها ونباتاتها وحيواناتها ، فما هو سر هذه العلاقة .. طفولة ونشأة ؟

« ولدت في «مدينة (حيفا) ، لكن سنوات طفولتي قضيتها في دير للراهبات (الراهبات الالمانية) يحتوي على مساحة زراعية واسعة فيها مختلف أنواع الاشجار والخضروات .. ففي كثير من الاحيان كنا نتلقى دروسنا تحت اشجار الزيتون .. العابنا كانت تجري دائما بين الاشجار .. وفي مسواسم الزيتون كنا نساعد الكبار في جمع الزيتون .

هذا اللقاء الطفولي مع الارض والممارسة المبكرة معها كان يستكمل صورته في حضان ابي في فترات الاجازة .. وامي فلاح لا زالت تحمل في روحها قرية « فسوطه » الجبلية القاسية والجميلة .. واحاديثها وحكاياتها عن فسوطه لا تنتهي : الفلاحون الذين يحلون الارض الجبلية الجرداء الى اراض صالحة للزراعة .. والدها المشهور ككبير صيادي الشمال .. عادات القرية وتقاليدها ... الخ .

وامي تتقن استخدام كافة أنواع الاسلحة ، كما تتقن الركوب على الخيل .. فيها الكثير من ملامح الرجال مثل معظم الفلاحات في الريف الفلسطيني .. والقريب ان ابي حتى هذه اللحظة لا تستطيع النوم الا اذا حكشت ما تزرعه في حاكورة البيت من بندورة او بقندونس او غيرها من الخضروات .

في فصول الصيف التي كنا نقضيها في قرية المقيبه حيث تعيش جدتي كانت تتواصل علاقتي بالارض .. ففي القرية أرض لوالسدي يزرعها قريب لنا محروم من الاطفال ، تعلق بي كما تعلقت به ، كان ياخذني دائما حيث يعمل فاقضي النهار في المقاهي وركوب الحمير والنهاب الى العين . اضافة الى ذلك كانت هناك الرحلات التي نقوم بها في انحاء مختلفة من البلاد .. هكذا قضيت سنوات طفولتي الاولى بين الدير وقسوطه الجبلية والمقيبه الساحلية حتى وقعت النكبة فرحلنا من حيفا الى المقيبه .. والدي الذي تنكر للقرية والارض بفعل ظروف الاحتلال وسياستته الاقتصادية عاد ثانية ليعمل بالارض

الناصره ومرحلة التحول

في ذلك العام (١٩٥٥) انتقلت الى الناصرة للدراسة ، وهناك عشت في الحارة الشرقية التي لا تبدو كونها قرية مزروعة في المدينة ، فمعظم سكان الحارة فلاحون يستعملون الیواب ويزرعون اراضي القرى المجاورة . وحول بيوتهم لا زالوا يزرعون الحواكير الى الآن ..

عندما انتهت دراستي عملت معلما في المقبية مدة عام واحد فقط ثم طردت من عملي لاعداد ثانية للعمل كفلاح ، الى ان دخلت السجن عام ١٩٧٠ ، الا انني واجهت وضعاً مريباً خلال عملي الجديد ، فبعد ان صادر المحتلون ارضنا وحولوها الى بركة كبيرة ضمن قانون تركيز الاراضي الجديد (هذا القانون الذي قاومه السكان دون جدوى ورفضوا ان يخلوا ارضا مقابل ارضهم او ان يتنازلوا عن ملكيتها مقابل المال) وجدت نفسي مضطرا لبيع قوة عملي في القرى الزراعية والكيبوتسات اذرع واحرث واربي الابقار والماشية . الوضع المعقد الجديد الذي وجدت نفسي فيه هو احساس المير بان نهر هذه الارض يذهب للمحتلين .. لقد صارت القضية الآن اكبر بتحرير الوطن وليس بالدفاع عن ارض القرية فقط ..

● لا شك ان هذه الفترة الطويلة تفسر سر علاقتك بالارض .. هذه العلاقة العفوية الوطنية الطبيعية ، كيف تطسورت في مرحلة الوعي اللاحقة ؟

— لا شك ان الناصرة كانت نقطة التحول الاساسية ، فهذه المدينة العربية كانت تمور فيها تيارات وطنية وعروبية حادة وتتلقي على الدوام انعكاسات الوضع العربي ، وخاصة في عام ١٩٥٦ وخلال العدوان الثلاثي على مصر ، حيث وقعت مذبحه كفر قاسم ..

لقد خرجت جماهير الناصرة لتمنع بالقوة تحرك السيارات العسكرية الاسرائيلية ، كانت ملحمة رهيبة سقط خلالها اعداد كبيرة من الجانبين . وفي عام ١٩٥٨ حدثت ملحمة اكثر دموية بمناسبة الاحتفال بعيد العمال ، وزج بالثبات في المعتقلات ، وكنت واحدا ممن اعتقلوا مؤقتا في تلك الفترة .. كان ذلك هو الاعتقال الثاني لي .. المرة الاولى حين كنت صغيرا حيث سجنحت خمسة ايام بتهمة سرقة حمل .. والحقيقة ان هذا الحمل قد سرح الى قرينتنا وحده مسن كيبوتس قريب ، فاخذته ورببته ، ولكن لونه المميز كشفني في النهاية فصادروه ودفع والذي ١٠٠ ليرة اضافة الى الاعتقال .

الاتجاهات السياسية الرئيسية في فترة وجودي في الناصرة كانت تتركز بقوتين اساسيتين : « حركة الارض » والحزب الشيوعي . لكنني لم اكن عضوا في أي منهما وان كنت اكثر ميلا لحركة الارض التي كانت مفاهيمها الاساسية قومية تحررية اشتراكية ، الا ان هذه الحركة لم تلبث ان تلاشت بفعل الضربات المتلاحقة التي وجهت لها .. اما الحزب الشيوعي الذي كنت صديقا له فان عدم انتمائي له يعود اساسا لرفضني الموافقة على بند في قانونه الاساسي ينص على ان حامل عضوية الحزب هو مواطن اسرائيلي .

هكذا وجدت نفسي في معترك الحياة السياسية والنضال الوطني .. هذه الفترة شهدت ولادة الادب المقاوم في الارض المحتلة ، وبدأ الكتاب والشعراء يلعبون دورا تحريزيا بارزا في الحياة السياسية : حنا ابو حنا وحبيب فهوجي والقاص فرج نور سلمان وراشد حسين .. والآخر كان ابراهيم وهو بحق واضع حجر الاساس لشعر المقاومة . وعلى اثر ذلك ظهر درويش والقاسم وجبران وغيرهم .. وغيرهم .. هذا الادب اسيه ادب التصدي : فقد كان يتعرض اساسا لمحاربة محاولات اقتلاع العربي ارضا وشخصية ، وضد الاحكام والقوانين الجائرة التي يضعها المحتلون .

● اتت اساسا كاتب قصة قصيرة بالاضافة الى كونك روائيا وكاتبا مسرحيا .. كيف نشأت علاقتك بالقصة كشكل ادبي خاص ؟

ان عام التشرد والاهانات الذي عشناه على مدار سنة كاملة في الجبال كان عاملا هاما في تمسكتنا بالارض وعدم الرحيل عنها . ومقابل ذلك بدا الصراع والتحدي ضد المحتلين في التشبث بالارض وعدم التفریط بها .. تلك كانت قصة الصمود الباسل الذي وفقه الفلاحون في السنوات التالية وعلمني قيمة الارض ، وربطني بها اكثر . (هذه القصة البطولية هي موضوعات توفيق فياض وحكاياته التي ضمتها مجموعته القصصية « الشارع الاصفر ») .

المقبيه وصنذله هما القرستان الصريبتان الوحيدتان في مرج ابن عامر اللتان واجهتا سياسة التهجير ومصادرة الاراضي فتحولتا نتيجة ذلك الى منطقتين مزولتين عن العالم .. الحياة فيهما تعتمد على الارض والشجرة والماشية ، وليس هناك مصدر رزق آخر .. التصاريح ممنوعة والخروج من القرينين بالتالي ممنوع ، وليس هناك اية خدمات تقدم للقرينتين .

في عام ١٩٥٢ عرض المحتلون عرضا مغرية لبيع الارض ومغادرة القرية الى الاردن .. حين رفض الاهالي هذه العروض لجا المحتلون الى سياسة الارهاب والبطش والتنكيل من اعتقالات ومداهمات لدفع الناس لبيع اراضيهم .. لكن العدو الذي فشل في كلا الاسلوبين لجا الى أسلوب جديد بالادعاء ان هذه الاراضي دخلت قانون الاستيطان ، والخيار المطروح امام اهل القرية هو بيع الاراضي والهجرة الى الاردن او مبادلة اراضي هذه القرية بقرية اخرى اسمها شعب بحيث ياخذ الفلاح مقابل كل دونم ارض في مرج ابن عامر خمسة دونمات في قرية شعب ومقابل كل غرفة اربع غرف ، لكن الفلاحين رفضوا فازداد الاضطهاد وحوصرت القرية لمدة ستة اشهر حصارا تاما بحيث لا يدخلها او يخرج منها احد ، كما منع عنها كل شيء .. في هذه الاثناء وقعت حادثة « اقرث » حيث ادعى المحتلون بانهم سيقومون بمناورات عسكرية في المنطقة وعلى اهالي اقرث مصادرتها عدة ايام ، وحين فعل الاهالي ذلك قصفها الاسرائيليون بالناطرات ودمروها ليفرضوا على اهلها القبول بمنطقة ثانية .. امام هذه الحادثة اصر اهل المقبيه على البقاء في بيوتهم حتى ولو أدى الامم الى قصفهم بالطائرات .

حين جاءت الترتورات لعراة ارض القرية على اساس انها اراض مصادرة خرجت القرية بكاملها الى الحقول والقلى الناس بانفسهم تحت عجلات الترتورات .. كنت مع الذين القوا بانفسهم تحت العجلات ، وكنا نصرخ فيهم : اصعدوا فوقنا اذا اردتم ان تمروا ...

ومن المشاهد التي لا تنسى في تلك الساعات الرهيبة جارة لنا انتزعت طفلها الرضيع عن صدرها والقت به امام الترتاتور وصرخت بالسائق : « اذا كنت زله اطلع عليه » .. في تلك اللحظة اوقف السائق الترتاتور ونزل منه .. اذار ظهره للقرية ومضى بعيدا في مرج ابن عامر والدموع تملأ وجهه .. وحين حاول الجنود ايقافه زجرهم بصف ومضى مبتعدا في المرج الواسع ..

ذلك الحدث الذي لا ينسى اضاف لعلاقتي بالارض معنى جديدا . لقد صار حب الارض يجعل معنى الغد والتضحية من اجلها ..

● خلال هذه السنوات ماذا كنت تفعل ؟

حتى عام ١٩٥٥ كنت اعمل في الارض كاي فلاح .. اذرع واحرث واقلب الارض واحصد ، كما كنت ارضي الاغنام .. كنت كذلك اشارك في احتفالات القرية .. اغني وارنجل الاغاني .. الكبار كانوا يدعونني لاروي لهم الحكايات التي كنت احفظ الكثير منها بواسطة جدتي (بعد سنوات طويلة كتب توفيق قصتين عن جدته : « الديك الصانع » و « ليلة القدر ») .

عن الثورة والقدانيين ، ولكن ظروف النشر في الداخل حالت دون خروجها الى النور باستثناء قصة واحدة . لكن هذه المجموعة بمسح اعشالي وتفتيش بيتي مرارا اختفت ، كما اختفت معها مسرحية غير كاملة ورواية .

نزبه ابو نضال

أجرى الحديث

المخبر

قصة بقاءم توفيق فياض

لو لم يقفّر ((أبو صالح)) لهان عليها كل ما رأته من ويسلات حرب حزيران ، حين دخلت القوات الفائزة قرية طوباس ، وهي تحتل القرية بعد الأخرى ، من قرى الضفة الغربية . بل ولهان على ((أم صالح)) كل ما يرتكبه المحتلون من افعال تشييب لها الاطفال ، كما كانت تقول دائما .

فبدلا من ان يواسيها ، ويخفف عنها حزنها ، على فراق ابنائها الثلاثة ، الذين رحلوا مع بقية أهلها الى الضفة الشرقية من الأردن ، أصبحت لا تستطيع التحدث اليه في أي شيء ، حتى ولا في شؤون البيت ، لكثرة أشغاله كما يقول لها دائما . لقد عاشت معه سنتين طويلة ، دون ان تسمع منه في يوم من الأيام انه مشغول . خاصة حين كانت تود التحدث اليه ، بل انه لم يكن ليتأخر ليلة واحدة عن العودة الى البيت ، أكثر مما تقتضيه صلاة العشاء ، اللهم الا في ليالي الأعياد ، حين كان يسافر لزيارة شقيقته المزوجة في القدس . اما اليوم فلم تعد تعرف الى أين يذهب ومن أين يأتي . يوم ((أنا رايح)) على نابلس يا مرة . . . يوم ((أنا رايح على جنين)) ، وكلما حاولت سؤاله عما يشغله ، وماذا يفعل في نابلس أو في جنين ، فاما انه لا يرد عليها البتة ، واما انه يكفي بقوله ، ان لا دخل لـ... في شؤونه . . . فتسكت خوفاً من نظراته المتوقدة التي يصوبها نحوها . . . ثم يخرج مرتعدا وهو يتمتم ، ان باله مشغول على الأولاد ، وان لا بد له من الحصول على تصريح من السلطات لارجاعهم ، وبأي ثمن ، ولا يعود الا بعد منتصف الليل ، أو قبيل الصباح ، رغم حظر التجول الذي فرضه المحتلون على القرية أثناء الليل . وفي كل ليلة كان يعود فيها متأخرا ، تكون لا تزال ساهرة في انتظاره ، الا انه كان يدخل الديوان دون ان يكلمها ، الى أن صرخ في وجهها ذات ليلة ، بأنه اذا وجدها غير هذه المرة تقف في طريقه ، وتنظر اليه كمادتها ، فسيطلقها ، مما جعلها لا تجرؤ على النهوض من فراشها كلما عاد ، وهي التي كانت تنتظره كل تلك السنين الطويلة وكل يوم ، حتى يعود لتقوم على خنمته الى أن يأوي الى فراشه وينام .

نفذ صبر ((أم صالح)) ولم تصد تحتل هذه الحياة مع ((أبي صالح)) ، وقد عرفت بحسها ما يفعله ، لا سيما بعد أن أصبحت ابنتها صبيحة لا تكف عن سؤالها عما يفعله والدها ، ولماذا يخرج في الليل ، بينما لا يستطيع الآخرون الخروج . وكيف ان جميع بنات الحارة بدان يتبعن عنها شيئا فشيئا ، ولا يشركنها في حديث أبدا . وكلما مرت بمجموعة من النساء ، يبدان بالتهامس خلفها . فراحت ((أم صالح)) تراقبه عندما يخرج . . . وذات يوم تبعته الى كرم الزيتون فرأته يصعد سيارة عسكرية ، كانت في انتظاره ، فراح قلبها يخفق بشدة ، ولم تتماسك نفسها عن البكاء ، وهي تصعد ادراجها الى البيت .

وما كادت تصل الى البيت حتى سمعت جارتهم ((أم علي)) وهي تصرخ بأعلى صوتها ((ول يا علي ، نطفعت البنات تاتناسب هالخبان ، اللي الله أعلم كم شهيد صار برقبته . . . الله ينتقم منك يا بو صالح)) .

التتمة على الصفحة ٧٤

لا اعرف بالضبط سر علاقتي بالقصة تحديدا . . ربما يعود ذلك الى طبيعي كفاح يعتمد على الحكاية بشكل أساسي والحكاية الرمزية في كثير من الأحيان . . اذكر مثلا بعد احتلال اسرائيل لسيناء والجولان والضفة الغربية ان فلاحا فال مباشرة نعلقنا على ذلك : ((واوي وبلع منجل)) وبقية المثل معروف . . هذا الاسلوب في الحكاية الرمزية التي يلجأ اليها الفلاح بذكائه النظري الذي يبلغ أحيانا درجة الغيب وصولا لما يريد ، ربما كان الدافع غير الواعي لانجاهي نحسو القصة . . خاصة لاضطراري للجوء للرمز أيضا .

● متى وكيف بدأت تكتب القصة القصيرة ؟

— في مدرسة الناصرة وفي دروس الانشاء العربي كنا نكتب أحيانا قصصا قصيرة ، وكان أستاذ العربي يسجل على كل قصة اكتبها ((سيئة جدا)) أو ((سيئة)) حتى اكتشفت أخيرا بأن هذا الأستاذ واسمه حبيب ذيب هو أيضا كاتب قصة ، ولم يكن يريد ان يصيبي الفروع مبكرا ، ثم أخذ يشجمني على كتابة القصة القصيرة ويقرا كل ما اكتب . . كذلك كان هناك أستاذ عربي آخر اسمه حنا ابراهيم يوفر لي ما أحاجه من كتب ، ويولينني رعاية كبيرة .

● ماذا عن الشكل الفني وكيف توصلت اليه ؟

— حين بدأت كتابة القصة القصيرة ، كنت خالي الذهن عن القصة القصيرة ومدارسها ، وحتى ذلك الوقت لم أفرا سوى بعض قصص تيمور والمازني وعددا من الفصص الاميركية والانكليزية المقررة ، لهذا فانت تستطيع القول بأنني كاتب بعل ، فيما بعد بدأت بالاطلاع على القصة القصيرة العالية ، خاصة في الستينات .

● هل تأثرت بقصاصين محددين ؟

— لا اذكر انني تأثرت مباشرة بقصاصين . . اذكر انني أحببت تشيكوف مبكرا .

● هل تكتب الشعر (١) ؟

— محمود درويش يقول ان هذا من عاداتي السيئة ، لكنني لست شاعرا . في السجن كانت القصيدة الاسلوب الوحيد الممكن للتعبير عن النفس . نشرت بعض القصائد تحت اسم مستعار ((ابن الشاطيء)) . . حين كنت صغيرا كنت اكتب وأرتجل الاغاني . . ذلك سبب لي مشكلة كبيرة ، وكنت ان اضرب . . ربما لذلك توقفت عن كتابة الشعر . اما عن لغتي الشعرية في قصصي فلان لفة أهل القرية فيها كثير من الشعر والفنائية ، ولهذا تلاحظ هذا الجانب الشعري في الفصص الأكثر ارتباطا بحياة القرية ولغتها العامية . .

● تتعرض قصصك المنشورة لموضوعات سابقة على عام ١٩٦٧ ، ماذا عن قصص الغزاة اللاحقة . . مرحلة الثورة الفلسطينية ؟
— بعد عام ١٩٦٧ كتبت أكثر من أربعين قصة قصيرة غالبيةها

(١) أسلوب توفيق فياض فيه الكثير من الشعر :

((ولو يا أم الخير ، عهدي ذيك صامده ، وفلوع شددايد . . تيجي العواصف وتروح ، وسنديان جبالنا ناصب مشعل العرايس . . وزيتون بلادنا يا أم الخير في الخريف بسدر مواسمه ، وزينه يطغخ خوابينا . . وفي شهور الشدة يملا حلائنا سوار دورنا عبران . وما دامت جبال بلادنا تعلب فيوم سماها وتلا جرار أم الخير مي ، ما دامت أم الخير عايشه وتشرب الناس ميتها .
والفروح اللي عافت الناس بلاها ، شامات حسن على خنودها نصير ، يبهو الناس زينها)) .

يصعد السيارة العسكرية ، ورفعت يديها الى أعلى ، تسمعو الله أن ياتوا لها به محملا على خشبة ، او يكون قد قتل وبقي مرميا بيسن الجبال ، تاكله الوحوش ، ولا ترى وجهه ثانية .

لم تعرف كم من الوقت مضى عليها ، وهي تجلس الى الشباك ، حين سمعت هدير سيارة خافتا ، تتوقف خلف سياج الدار ، فنهضت وخنقت نور الصباح اكثر ، بعد أن انتزعت من الجدار ، ووضعته على ارض الغرفة في الزاوية ، وراحت تجيل نظرها في ظلمة الليل العالكة ، الا انها لم تستطع رؤية أي شيء فسي الخارج ، عاودت السيارة هديرها الخافت مبتعدة ، اعقبتها خطوات « أبي صالح » وهو يدلف الى ساحة الدار ، فراحت ترقبه وقلبها يدق بسرعة عجيبة ، مستعدة لمواجهة . وقلت تفترض طريقه الى الديوان ، فدفعها بكل قوته صارخا بانها طالقة منه ، وانه لا يريد أن يراها في بيته منذ الصباح . فخرت على الارض صارخة صارخة صحت على اثرها صبيحة ، التي ففزت من نومها ملعورة ، ثم اسرعت اليها تحتضنها ، بينما دخل الى الديوان وهو يتنفس غضبا .

كان صباح اليوم التالي ناعسا نديا ، وغيموه الرمادية ، الهمام ترمي على اطراف الافق . وكان الجنود يسوقون نساء ورجال قرية طوباس ، الى ساحة البلدة الكبيرة ، حيث وقفوا واجمين تتوزعهم نظرات الغضب والحزن الهادئة ، بينما وقف « أبو صالح » منكسسا راسه الى جانب زوجته وابنته ، حول أربع جثث ملففة . ثم ما لبث الجنود ان تفرقوا عن الجثث ، بينما بقي أحدهم الى جانبها ينتظر اوامر القائد للكشف عنها ، وإبراز وجوهها للتعرف عليها .

فردت الشمس حزنها اللهي على الوجوه المشرقة ، فشوقت العيون الترقية تحتضن « أم صالح » ، التي ركمت تلملم بشفتيهما الثاكتين ، بسمة حارت على معيا صغيرهم .. الذي أخذ يكبر امام هينها ويكبر .. فيكبر الزغب الحريري على وجهه القمحي الجميل . بينما راحت اناملها تداعب خصل الحرير على الجبين السندياني .. وتمسح عن الجفنين حزنهما الفلسطيني الوادع .

انتمت بين الجنود الذين اقتربوا منها لابعادها ، واخذت بيد ابنتها سائرة نحو ابناء القرية ، بعد أن التفتت الى « أبي صالح » الذي ظل يقف وحيدا ، دافئا وجهه بين يديه .

عن الارض والادب

تابع المنشور على الصفحة ١٦ -

قبضت « أم صالح » على فتحة ثوبها بكتلتا يديها ، وقدته حتى اسفله ، وهي تكتم شهقتها ، ثم اندفعت داخل البيت ، واغلقت الباب خلفها كي لا تسمع صبيحة ما يقوله « أم علي » ، فوجدتها تجلس في الزاوية وهي تنتحب بمرارة ، فاقتربت منها تحتضنها ، الا انها ما كادت تلمسها ، حتى ففزت وهي تصرخ باعلى صوتها ، انها تريد الموت ، واندفعت نحو نكة النفط ، بينما راحت تقاومها بكل قوتها ، حتى انتزعتها من يديها ، وشرعت تهدئها خوفا من الفضيحة .. وهي صدها بردع والدها عما يفعله ، وانهما ستقطع بها النهر لتلحق باخوتها ، وتركانه وحده اذا لم يرتدع .

كانت طوباس تتلفع باحلام جبالها السبية ، وريح كانون المتوجسة تتلاحق في أزقتها . وزخات المطر المتقطعة تدق أبواب المنازل الموصدة و « أم صالح » لا تزال ساهرة الى جانب صبيحة التي نامت ودموعها تندي اهدابها الطويلة المفضة . ثم استسلمت لغيوبة طويلة ، وهي تثبت نظراتها على صورة ابائها الثلاثة الملقسة في صدر البيت ، والذين لم تراه منذ أكثر من عام ، ولا تعرف عنهم شيئا ، سوى ما نقله لها بعض الفائيين « بلغوا أمي اننا بخير ، فولوا لها ان لا تحزن علينا ، اذا لم نعد اليها قريبا » . فتبكي بمرارة ، وتغيب على ضفاف بسمة صغيرهم احمد ، الذي كان يكبر امام عينها .. ويكبر ! فيكبر الزغب الحريري على وجهه القمحي الجميل ، ثم ما لبث ان يغيب تحت كوفته المهدبة ، فتسحق البسمة الياشمية تحت اللثام .. لتنسب في عينيه الغاصبتين .

ناحت على الباب ريح الليل ، وانثفت على الشبايك دموع المطر ، ودوت عدة انفجارات متتالية ، فانثفت وهي تقفز من مكانها الى الشباك ، تستوقفها لعلات رشاشات متواصلة ، بدت لها قريبة جدا ، حتى انها استطاعت تحديد موقعها بين الجبال ليس بعيدا من كرمهم ، ثم ما لبثت الرشاشات ان توقفت عن لعلتها ، بينما بقيت متجمدة على الشباك تفكر ب « أبي صالح » الذي لم يعد منذ ان رآه

دار الاداب تقدم

يوسف شرورو

في

عين في النهار

مجموعة قصص جديدة

صدرت حديثا